# خطبة الكافي

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، وميَّزه على سائر أجناس الحيوان. والصلاة والسلام على أفصح الأنبياء بيانًا، وأوضحهم حجة وبرهانًا، أحمد[1] من أرسله لإرشاد الخلائق إلى أسنى الحقائق، وعلى آله الكرام البررة الذين اقتفوا أثره، وصحبه أعلام العلم والهداية، الذين كان لهم في نشر آثاره أسمى عناية، وعلى التابعين لهم بإحسان، ما أعرب عمَّا في النفس لسان.

[1] أحمد: الذي يحمد، وهو اسم التفضيل أن يبنى من الفاعل، فإذا قيل زيد أشكر؛ فإن المراد به إثبات كونه شاكرًا، وأنه يفضل على غيره في ذلك، ولا يجوز أن يكون المراد إثبات كونه مشكورًا، وأنه يفضل على غيره في ذلك، وأجاز الكوفيون أن يُبنى من المفعول، واستشهدوا على ذلك بنحو أشغل وأحبَّ، وأجاب عنه البصريون بأن هذا شاذ فيقصر فيه على ما سمع. وقد حاول بعض العلماء نصر الكوفيين حين أراد أن يجعل أحمد بمعنى الذي يُحمد أكثر مما يُحمد غيره؛ ليكون أحمد كمحمد في المعنى، فإنهما وإن كانا علَمين ففيهما إشارة إلى الصفة؛ فمحمد هو الذي يُحمد كثيرًا لكثرة الخصال التي يُحمد عليها.

وأحمد هو الذي يُحمد أكثر ممَّا يُحمد غيره لزيادة خصاله المحمودة على غيره ممن تُحمد خصاله، وعندي أن مذهب البصريين أقوى. وأما أحمد فقد ورد عن العرب استعماله بالوجهين، ومنه قولهم: «العود أحمد.» فإن معناه الابتداء محمود، والعود أحق بأن يُحمد، ويجوز أن يكون المعنى ابتداء المعروف جالب للحمد إلى نفسه والعود أجلب له، قال زيد الخير:

وأحسنت والإحسان منك سجية  فإن عدت بالإحسان فالعود أحمدُ

وأحمد في هذه الخطبة وصف يشير إلى الاسم، وهو يحتمل الوجهين على السواء.

أما بعد، فلما كان للغة العربية الشأن الذي لا يُجهل أقبلت وجوه العلماء الأعلام عليها؛ وجعلوا وجهتهم تمهيد السبيل إليها[٢] كي لا يُحلَّأَ عن مواردها العذبة وارد، ولا يُدرأ عن معاهدها الرحبة قاصد،[٣] فبينوا قواعدها وأحكامها، ورفعوا أعلامها. وأفردوا كلًّا من حالي الأفراد والتأليف بالبيان، حتى كاد بيانهم يكون بمنزلة العيان، ونقبوا في البلاد عن شواردها، وجعلوا أسفارهم قيد أوابدها،[٤] وأبرزوا في ذلك مصنفات مختلفة الأصناف، مشحونة بصحاح الجواهر ممتازة عن الأصداف،[٥] ودعوا الناس إليها دعوة تامة؛ لتكون مأدُبة الأَدَبِ لهم عامة.[٦]

[٢] الوجه: وجمعه وجوه وأوجه، والوجه: الوجيه وجمعه وجوه، ومنه: قدِمتْ وجوه القوم، أي: ساداتهم ووجهاؤهم، والوِجهة بالكسر القِبلة والجهة وكل مكان استقبلته.

[٣] حلأه عن الماء: تحلِئة وتحليئًا، صدَّه عنه ومنعه من وروده، وورد الماء ورودًا بلغه ووافاه، والموارد جمع مورد وهو موضع الورود، ودرأته عن الشيء دفعته عنه، والمعاهد جمع معهد وهو المنزل الذي لا يَزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه، والموضع الذي كنت تعهد به شيئًا، والرحب: الواسع، تقول: بلد رحب وأرض رحبة.

[٤] نقبوا في البلاد: ذهبوا فيها وجالوا في كل مجال، ونقبوا عن الأمر ونقروا: بحثوا عنه، والنقاب ككتاب: الرجل العلَّامة، ونقيب القوم: ضمينهم وعريفهم، قيل له ذلك لأنه ينقب عن أسرارهم ويعرف دخيلة أمرهم. والشوارد: هي اللغات الغريبة عند الأسماع؛ لقلة تداولها على الألسنة واستعمالها في المحاورات، وهي جمع شاردة، وأصل الشرود النفرة، يقال شرد البعير شرودًا وشرادًا إذا نفر فهو شارد. وأَبْدَت البهيمة: توحشت فهي آبدة وهن أوابد، وأبد الشاعر أتى بالعويص في شعره، وأوابد الكلام غرائبه، وأوابد الشعر هي التي لا تشاكل جودة.

[٥] أراد بصحاح الجواهر: اللغات الصحيحة الفصيحة، وأراد بالأصداف ما سوى ذلك، وكتب اللغة بهذا الاعتبار ثلاثة أنواع:

«النوع الأول» الكتب التي اقتصر فيها مؤلفوها على الجواهر الصحاح.

«والنوع الثاني» الكتب التي ذكر فيها مؤلفوها النوعين، غير أنهم ميَّزوا أحدهما عن الآخر؛ فلم يقع في كتبهم التباس، وهؤلاء كأرباب النوع الأول ممن استوجب الثناء الجم من الناس، وإلى هذين الفريقين تشير هذه الفقرة.

«والنوع الثالث» الكتب التي مزج مؤلفوها بين النوعين؛ فكدروا على الناظر مورد العين، وهؤلاء لم يُخلِهم من ملام من أُولع بتهذيب الكلام.

ثم اجتهدوا في فقه اللغة؛ فأوضحوا أصوله المُحكمة، وشرحوا فصوله المبهمة[٧] حتى ظهر ما بهر من سرها الخفي ومن خصائصها المونقة لمن هو بها حفي،[٨] ولم يزل التأليف فيها متواترًا بقدر الإمكان مرعيًّا فيه حال الزمان والمكان،[٩] والناس لهم بما ألف فيها

---

[٦] الأدب: أدب النفس، وأدب الدرس، تقول منه أَدُب الرجل بالضم فهو أديب، والمأدبة: الطعام الذي يصنعه الرجل يدعو إليه الناس، وهي بضم الدال، وأجاز بعضهم فيها الفتح، وقال بعضهم: هي بالفتح مفعلة من الأدب، وفي حديث ابن مسعود: «القرآن مأدبة الله في الأرض.» شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس لهم فيها خير ومنافع، وجمعها «مآدب»، وأدب الرجل القوم أدبًا من باب قصد: صنع لهم طعامًا ودعاهم إليه فهو آدب، قال طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلى  لا ترى الآدب فينا ينتقِرْ

أي: لا ترى الداعي يدعو بعضًا دون بعض بل يعمهم بدعوته، وجمع الآدِب: أدبة، مثل: «كاتب» و«كتبة».

[٧] في اللغة ألفاظ تختص ببعض المواضع لا يجوز نقلها إلى غيرها، وتسمى معرفة ذلك بفقه اللغة، وذلك مثل: «الأزهر» و«الأشهب» و«الأملح»؛ فإن كل واحد منها يتضمن معنى الأبيض، غير أن الأبيض وإن وضع بالوضع العام لكل ما فيه بياض؛ غير أنه خص ما فيه بياض من الناس بالأزهر، ومن الخيل بالأشهب، ومن الغنم بالأملح؛ فاستعمال الأبيض في هذه المواضع يُعد مخالفة لحكم فقه اللغة، ولا يصدر ذلك عن أديب يرعاها حق رعايتها، وقد يراد بفقه اللغة ما هو أعم من ذلك كما هنا.

[٨] حفي به حفاوة: بالغ في إكرامه والعناية بأمره فهو حفيٌّ، والحفيُّ أيضًا: المستقصي في السؤال، ومن الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، وسر اللغة فن يُبحث فيه عن اللغة كيف حدثت؟ وكيف نمت؟ وعن اشتقاق الألفاظ بعضها من بعض؛ ليُعلم الأصل فيها من الفرع، وعن المناسبات بين الألفاظ والمعاني، وعن خصائص اللغة الثابتة لها في نفسها، أو المميزة لها عن غيرها وما أشبه ذلك، وهو فن جليل الشأن جزيل الفائدة غير أنه بعيد المنال إلا على من سَمَت هممهم إليه، وأقبلوا بوجوههم عليه، وقد كتبنا في ذلك ما يقرب مأخذه.

[٩] لا يستغنى في عصر من الأعصار عن التأليف في فن من الفنون وإن كانت المؤلفات فيه كثيرة؛ لأن لاختلاف الأزمنة والأمكنة مدخلًا في تجدد الاحتياج إلى التأليف، هذا إذا كان ذلك الفن مما لا يقبل الزيادة والنقص والتنقيح ولا يُظن ذلك في فن من الفنون، فإن كان مما يقبل ذلك كان الاحتياج أظهر، ولم ينقطع التأليف في عصر من الأعصار أو قطر من الأقطار إلا لقلة الرغبة في العلم لا لقلة الاحتياج إلى التأليف. غير أن للتأليف شروطًا لا يتسع هذا الموضع لبيانها، ومن أهمها أن يكون المؤلف وافيًا بما تدعو إليه الحاجة في ذلك العصر على وجه يوافق إدراك أهله.

أعظم إلف، حتى بلغ ذلك زهاء ألف.[١٠] ثم عرضت عوارض قضت بضعف العلم، وخفض أعلامه الشُّمِّ؛[١١] ففترت في تحصيلها الهِمم، وتُرِك رعاية ما لها من الذمم. حتى نجم عن ذلك ما نجم، وكاد أهلها في إهمال لغتهم يكونون كالعجم،[١٢] بل جعل بعض الأغمار أمرها غير أَمَم، وعدَّ الاشتغال بها ضربًا من اللَّمم،[١٣] وحال ما لا يحصى من الأحوال على هذا البلبال. ثم حالت تلك الحال، وأتى ما لا يخطر بالبال،[١٤] فقيَّض الله لها نفوسًا ساميةً أشرفت عليها فعرفت قدرها السامي، وسمت إليها فرأت لها من المحاسن ما به تحكي

---

[١٠] قد أُلف في اللغة ما لا يُحصى من الكتب ما بين مُطوَّل ومُختَصَر وعام في أنواع اللغة وخاص بنوع منها، ويُحكى عن الصاحب بن عباد أن بعض الملوك أرسل إليه يسأله القدوم عليه، فقال له في الجواب: «أحتاج إلى ستين جملًا أحمل عليها كتب اللغة التي عندي.» ولكثرة كتب اللغة قال صاحب «القاموس» منوهًا بشأنه: «وكتابي هذا صريح ألفي مصنف من الكتب الفاخرة، وسنيح ألفي قلمَّس من العيالم الزاخرة.» ومن أراد الزيادة فليرجع إلى كتب طبقات اللغويين.

[١١] العوارض جمع عارض، وهو: المانع، يقال: عرض لفلان في طريقه عارِض أي: مانع من جبل ونحوه يمنعه من المضي فيه، والأعلام جمع علم بفتحتين، وهو الجبل والعلامة والأثر والمنارة، ومن المجاز قولهم: فلان من أعلام العلم وأعلام الدين، والشم: جمع أشم، يقال: جبل أشم أي طويل الرأس، ورجل أشم أي: كريم أبيٌّ، وأصله من الشَّمَم وهو ارتفاع قصبة الأنف؛ فاستُعير للأنفة والإباء.

[١٢] نجم الشيء: ظهر وطلع، والفقرة الثانية تحتمل معنيين؛ أحدهما: أنهم بسبب إهمال لغتهم كادوا يكونون كالعجم في عدم معرفة اللغة العربية، وثانيهما: أنهما كادوا يصيرون كالعجم في عدم الاعتناء بلغتهم.

[١٣] الأغمار: جمع غُمر، بوزن قُفل وهو الذي لم يُجَرِّبِ الأمور، والأَمَم بفتحتين: القرب واليسير والبيِّن من الأمر، تقول: أخذت ذلك من أَمَم أي من قرب. وما سألت إلا أممًا: أي شيئًا هينًا قريبًا، والضرب: الصِّنف من الأشياء، واللَّمَم بفتحتين: مقاربة الذنب، وقيل: هو الصغائر من الذنوب، واللمم أيضًا: طرف من الجنون.

قال الإمام جمال الدين محمد بن مكرم بن أبي الحسن الأنصاري الإفريقي نزيل مصر في كتابه المسمى «بلسان العرب» بعد أن ذكر تنافس أهل عصره في اللغة الأعجمية وعدهم من المثالب النطق بالعربية: «فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفُلك وقومه منه يسخرون.» وكان مولده سنة ٦٣٠، وتوفي سنة ٧١١هـ.

[١٤] حال عليه الحول: مرَّ عليه، والحول: العام وجمعه أحوال، والحال: ما عليه الشيء والوقت الذي أنت فيه، وهو مما يُذكَّر ويؤنث، وجمعه أحوال وحالات، والبَلبال بالفتح كالبلبلة: اختلاط الألسنة وتفريق الآراء وشدة الهم والوساوس، والبِلبال بالكسر: المصدر، وبلبلهم بلبالًا: هيَّجهم وحركهم، والاسم: البَلبال بالفتح، والبال: القلب.

العُرْبُ التي تجِلُّ عن المُسامي،[١٥] فشرعوا في تجديد معاهدها، وتشييد قواعدها، إماطة الأذى عن شوارعها، وإزالة القذى عن مشارعها؛[١٦] ليكون الناس شرعًا في وردها السائغ، وظلها السابغ[١٧] وإن اختلفت مشاربهم، وتباينت أسرابهم ومساربهم،[١٨]وقرروا درسها في

[١٥] قيَّض الله فلانًا لفلان: جاءه به وأتاحه له، وسما الشيء: علا وارتفع، وسمت نفسه إلى معالي الأمور: طمحت إليها ووقفت آمالها عليها، وأشرف على الشيء: اطَّلع عليه، وحكيت عنه الكلام حكاية: نقلته عنه، والحكاية أيضًا: اللغة، وحكيته وحاكيته: فعلت مثل فعله وهيئته، والمحاكاة: المشابهة وهو مجاز؛ تقول فلان يحكي الشمس حسنًا ويحاكيها، والعُرُب بضمَّتين وتسكن راؤه تخفيفًا: جمع عَروب، وهي المرأة المتحببة إلى بعلها، والعُرْب بوزن قفل: لغة في العرب، ويجمع العَرَب على أعرب مثل: زمن وأزمن، وعلى عُرُب بضمتين مثل: أَسَد وأُسُد، والمُسامي: المطاول، يقال: فلان يسامي فلانًا ويساجله، وفلان لا يسامى وقد علا من ساماه، وتسامَوْا: تبارَوْا.

[١٦] شرع في الشيء شروعًا: أخذ فيه، والشوارع: جمع شارع وهو الطريق الأعظم الذي يسلك الناس فيه عامة، والمشارع: جمع مشرعة وهي المورد، ولا تسميها العرب مشرعة حتى يكون الماء عدا انقطاع له كماء الأنهار، ويكون ظاهرًا معينًا، وماط الشيء وأماطه: نحاه، ومنه «إماطة الأذى عن الطريق»، وهو: تنحية ما يؤذي فيها كالشوك والحجر ونحو ذلك، والقذى: ما يقع في العين والشراب من تراب أو تبن، وما أشبه ذلك.

[١٧] يقال الناس في هذا الأمر شَرَع: أي سواء، وهو بفتحتين ويسكن تخفيفًا، وساغ الشراب سوغًا: سهل مدخله في الحلق، وساغ له ما فعل: جاز له ذلك، والوِرد بالكسر اسم للماء الذي يورد وللوُرَّاد وهم الذين يرِدون الماء، واسم للورود، وهو خلاف الصدر، والسابغ: الكامل الوافي، يقال: ثوب سابغ ودرع سابغة، وسبغت عليه النعمة: اتسعت، وأسبغها الله: أتمها.

[١٨] الأسراب جمع سرب، والسِّرْب بكسر فسكون: الجماعة من الظباء والقطا والشاء وغيرها والطريق والنفس، ومنه: «من أصبح آمنًا في سربه ...» أي في نفسه، وقيل: السرب هنا الأهل، وهو مستعار من سرب الظباء والقطا، يقال: مرَّ به سرب وأسراب، ويُروى بفتح السين، أي في منقلبه ومتصرفه، والسَّرَب بفتحتين بيتٌ في الأرض لا منفذ له، تقول: اتخذ سربًا وأسرابًا ونفقًا وأنفاقًا، وسرب في الأرض سروبًا: ذهب فيها، يقال: هو يسرب النهار كله في حوائجه، وفلان بعيد السربة: أي المذهب، وللوحش والنعم والنحل مسارب ومسارح.